جنى قبل الإعدام

عن الانجليزية

بقلم الأديب مصطفى صبحي

جلس مستر أوين فى غرفته الخاصة بداره الكبيرة فى جرين مونتن بالولايات المتحدة ، وكان كاسف البال ، شديد الكآبة ؛ وإلى جانبه قسيس القرية يواسيه ويخفف عنه .

بينما مكثت لوسى الصغيرة فى ركن الغرفة تنصت إلى حديث الرجلين دون أن تلفظ ببنت شفة .

وتكلم مستر أوين قال : كنت أحسب حين وهبت ابنى لهذا الوطن أنى فعلت من أجل بلادى ما لم يفعله أى رجل آخر فى أمريكا على سعتها ، إذ ليس لى ولد غيره ؛ لكن هيهات لم تمض طويلاً ، لأن ولدى المحبوب قد غلبه النعاس فنام دقيقة واحدة فى نوبة حراسته بالمعسكر ، وهو الذى لم يغفل لحظة عن أداء واجبه ؛ وكان مثالاً للنشاط الموفور والهمة العالية . . .

صحيح أنه قد استسلم للكرى دقيقة ، واستحق حكم الإعدام الذى صدر ضده . لكن ليتهم رحموا شبابه ، وراعوا حداثة سنه . هو فى الثامنة عشرة فقط . . . من يصدق هذا ؟

إنهم الآن يتهيئون لرميه بالرصاص . لأن هذا النعس نام بضع ثوان ، ولم يظل ساهراً الليل بطوله يراقب قدوم جيوش الأعداء المهاجمين . إنه الآن فى السجن ينتظر تنفيذ العقوبة . فيا ترى كيف يقضى الوقت إلى أن تحين ساعته . . .

وأثرت لهجة الرجل فى نفس القس . فقال يروح عنه : دعنا نأمل رحمة الله . . . لماذا تيأس !

قال : نعم . نعم . فلنبتهل إلى الله ولنضرع إليه إنه غفور رحيم .

كان « بنى » قبل التحاقه بالجندية يقول لى : ساعيش يا أبى خجولاً أمام نفسى وأمام الناس إذا أنا لم أستعمل ذراعى القويتين للقتولتين من أجل بلادى عندما تقع الحرب ويدعونى الوطن . وكنت أقول له : إذهب يا ولدى ، إذهب فى حراسة الرب ، وها قد حرسه الله !

ونطق مستر أوين بالعبارة الأخيرة فى بطء كما لو كان رغم إيمانه قد ساوره الشك فى رحمة السماء !

فقال القس : تشجع يا صديقى تشجع ، ولا تقنط من رحمة الله !

وأصغت لوسى لهذا الحوار ، وهى فى موضعها منكسة الرأس ، بالغة الأسى ، ممتقعة اللون ، لما أصاب أخاها « بنى » ؛ لكن لم ترسل عيناها دمعاً ولم تسمح لهمها وكدرها أن يشيعا على محياها . وكانت على حداثة سنها تقوم بنصيب موفور فى إدارة شؤون البيت ؛ ولذلك هبت واقفة حين سمعت طرقاً خفيفاً على باب « المطبخ » ؛ وأسرعت وفتحت الباب ووجدت رجلاً يقدم إليها خطاباً .

وحملت الخطاب إلى أبيها وهى تقول :

— إنه منه . . . من أخى . . .

وكأن الخطاب وصية ميت أو رسالة من القبر ! فقد تطلع فيه مستر أوين دون أن يجسر على فض غلافه وارتجفت أصابعه وهو يدفعه إلى القس كما لو كان طفلاً لا حول له ولا قوة

وفض القس الغلاف وقرأ ما يلي :

أبي العزيز :

— عند ما تصلك هذه الرسالة أكون في عالم الأبدية ! فالموت ينتظرني عند باب السجن . ما أشد ما أخافني هذا الخاطر وروعني ! على أني فكرت كثيراً وقلبت الأمر على كل الوجوه حتى لم يعد الإعدام مخيفاً في نظري ... لقد احترموا آخر رغباتي في الحياة وسوف لا يضعون الأغلال في يدي ولا العصابة على عيني وعلى ذلك سألقى الموت كما يلقاه الرجل الشجاع الباسل وفي هذا تعزية كبرى

غير أني كنت أرجو أن تقضي الأقدار بغير ما قضت ، وأن تكون ميتتي أشرف من هذه الميتة كنت أود لو أموت شهيداً في ساحة الوغى وحومة القتال مدافعاً عن بلادي وفي سبيل المجد ، إما أن أعدم رمياً بالرصاص كالكلب وبهمة إهمال الواجب العسكري وهو شيء يضارب الخيانة ، فذلك ما يؤلمني أشد الألم ولا أدري كيف لم تقتلني هذه الفكرة قبل أن تقتلني بنادقهم

أبي : سوف لا يكون في حادثتي ما يخدش اسمك أو يصم شرف أسرتك . سأعترف ها هنا بكل شيء وعند ما أفارق الحياة آمل أن تشرح للدائي وأصدقائي ما وقع . أما أنا فرجل ميت والموتى لا يتكلمون

تذكر أني كنت قد وعدت أم صاحبي « جي كار » أن أعنى بولدها الذي هو زميلي في الفرقة فلما سقط « جي كار » مريضاً بذلت كل جهودي من أجل راحته والأخذ بيده ، حتى تماثل للشفاء على أنه قبل أن تجتمع له قواه وترد إليه صحته صدرت الأوامر لفرقتنا بالتقدم إلى خطوط النار . وناء « جي » بحمله فحملته عنه فضلاً عن حقائبي وقطعنا شوطاً بعيداً ، وانقضى النهار وبدأ الرجال يشعرون بالتعب وخارت قوانا جميعاً . أما « جي » فقد عجز عن مواصلة السير ولم يمش إلا بعد أن مددت له يد المساعدة

وحين شارفنا المعسكر كنت في أشد حالات التعب وأحوج الرجال إلى الراحة . لكن شاءت الصدف أن تكون نوبة الحراسة تلك الليلة لزميلي « جي كار » ورأيته محطما يكاد يقتله الضعف والتعب فتقدمت للحراسة عنه ونسيت أني في تلك اللحظة كنت أشد منه ضعفاً وإعياء ووهناً ، وصدقني يا أبي أني كنت عند ما غالبني النوم على حال من التعب والإعياء بحيث لو أطلقت على رأسي رصاصة لما فتحت عيني أو حركت ساكناً

على أني مخطئ وخطئي أني لم أفطن لحالتي إلا متأخراً جداً .. وعند ما وصل القس إلى هذا الحد من القراءة قاطعه مستر أوين بهذه العبارة :

شكراً لله ، إن ابني يموت شهيداً وليس خائناً

وعاد القس يقرأ هكذا :

قيل لي اليوم إن إعدامي تأجل يوماً واحداً بسبب ظروف طارئة ، وهذه فرصة لكي أكتب إليك كما يقول رئيسي الطيب القلب . اصفح عنه يا أبي فإنه لم يفعل سوى أن قام بواجبه ، وقد كان يود بإخلاص أن يتغاضى لكن القوانين العسكرية صارمة ولا حيلة فيها . كذلك أرجو ألا تضع مسئولية إعدامي على رأس « جيمي كار » فإن

المسكين منكسر القلب شديد الأسف لما حل بي .

وقد ألح عليهم أن يأخذوه فدية عني ولكن أحداً لم يعر طلبه التفاتاً بطبيعة الحال

أبي ، لا أجسر أن أفكر في أمي ولا في أختي لوسي فيا ليتك تواسيهما وتجفف دمعهما وليتك تقول لهما إني أموت شجاعاً باسلاً وإنه عند ما تنتهي الحرب سينسيان العار الذي سيلحق بي الآن

في هذا المساء عند ما تغرب الشمس ويولي النهار سوف تمر بخاطري صورة من صور السعادة الضائعة فأرى قطعان الماشية تمشي الهوينا من المرعى إلى الحظيرة وأرى بعين الخيال شقيقتي لوسي في الشرفة واقفة تنتظرني وتلوح لي حين تراني ؛ على أنها لن تراني ولن أعود !

أستودعكم الله واصفحوا عن ابنكم السيء الحظ

« بني »

* * *

في ساعة متأخرة من تلك الليلة فتح باب الشرفة الخلفية بمنزل مستر أوين وانسابت من بين مصراعيه صبية صغيرة وهبطت الدرج الذي يؤدي إلى الطريق

وكان المشاهد يحسبها لسرعتها طائرة لا ماشية وكانت تهرول إلى جهة معينة لا تلتفت إلى يمين أو شمال لكنها ترفع رأسها بين حين وحين شطر السماء ويداها منقبضتان كأنها تضرع إلى ربها وتبتهل

وبعد ساعتين طويلتين قضتهما هذه الصغيرة تسير وحدها في ظلمة الليل ووحشته وصلت إلى محطة ميل . وقبل أن تشرق الشمس كانت لوسي في العاصمة تسرع الخطا إلى البيت الأبيض الذي يقيم فيه رئيس الجمهورية

وكان مستر لنكولن (رئيس الجمهورية العظيم) قد دخل غرفته تواً وبدأ يلقي نظرة على الأوراق المكدسة على مكتبه وأقبل يفحصها وينظر في شئون دولته . . . وبدون أية جلبة فتح الباب بهدوء وانسابت لوسي إلى الداخل وخطت نحوه ثم وقفت قبالته بخشوع ورهبة : عيناها إلى الأرض ويداها منقبضتان

ووقع نظر الرئيس عليها ولم يبد عليه أنه غضب أو تململ حين فوجئ بدخولها ، بل ابتسم لها مترفقاً وخاطبها بصوت مشجع ، قال :

— نعم يا صغيرتي ؛ ماذا تريدين في هذا الوقت المتأخر

— أريد حياة « بني » يا سيدي

— بني ؟ من هو بني ؟

— أخي . إنهم يرمونه بالرصاص بسبب نومه في نوبة حراسته

فعاد مستر لنكولن إلى الأوراق التي أمامه ينظر فيها وهو يقول :

— آه ، لقد تذكرت الآن ؛ إنه نام في أحرج الأوقات وأخطرها واعلمي يا صديقتي الصغيرة أنه اختار لنومه ساعة تتوقف عليها مصائر بلاده وحياة ألوف من الجنود . وهذا استهتار شنيع

قالت :

— وهكذا يقول أبي لكن « بني » المسكين كان متعباً جداً يا سيدي وكذلك كان « جمي » وقد قام أخي بعمل رجلين ولم تكن تلك الحراسة حراسته . كانت النوبة على « جمي » ولكن « جمي » كان مريضاً وعند ما حل أخي محله لم يكن يفكر في نفسه ولا في تعبه ونسي أنه منهك القوى

ورفع الرجل العظيم رأسه من بين الأوراق وعاد ينظر إلى زائرته الصغيرة وقال :

ما هذا الكلام يا طفلتى؟ أنا أكاد لا أفهم شيئاً ، تعالى إلى جانبى وقصى قصتك

وبمثل العناية التى يبذلها دائماً فى مختلف شئون الدولة أقبل الرئيس لنكولن يفحص هذه الدعوى ومشت لوسى إليه قربت على منكبها وحول بيده وجهها إليه وأحست بعطفه عليها فرددت قصتها وقدمت إليه خطاب أخيها لأبيها فأخذه منها وألقى عليه نظرة ثم قرأه بعناية ، وحالما انتهى منه أمسك قلمه وخط بسرعة بضعة أسطر على ورقة ودق جرساً أمامه فاقبل أحد الحجاب ، وسمعت لوسى الرئيس وهو يقول للحاجب : ابعث بهذه الرسالة فى الحال !

وبعد يومين من هذه المقابلة وفد إلى دار الرياسة جندى شاب ومعه صبية صغيرة . كان الشاب « بنى » وكانت الصبية أخته « لوسى » واستقبلهما الرئيس فى غرفته الخاصة واحتفى بهم وكان يلبس حلة عسكرية جديدة تزين كتفيها شارات الترقية التى رفعته إلى درجة ملازم وخاطبه الرئيس قال :

لقد عفوت عنك ورفعت درجتك يابنى لأن الجندى الذى يحمل حقائب زميله المريض ويموت من أجل غيره دون أن يشكو أو يتبرم ، يستحق تقدير الوطن .

وعاد بنى ولوسى إلى جرين مونتين ، حيث استقبلتهما الجماهير الهاتفة فى المحطة وبسط مستر أوين يده لولده والدموع تنهمر من مآقيه على خديه وسمعه الناس وهو يهتف بحرارة : « لله الحمد ! »

مصطفى صبحى

بنك مصر

اكبر مؤسسة مالية مصرية

تنشىء الصناعات الكبرى

وتقيم دعائم الاستقلال الاقتصادى

عاملوه ... وعاملوا شركاته   تكسبوا ... النصر لبلادكم

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين)